



# موسوعة النظم والحضارة الإسلامية

٥

## النظم الـ ١١١ و ١١٢ نظمها - فلسفتها - تاريخها

وضعه بالإنجليزية وترجمته إلى العربية

الدكتور أحمد شبليني

دكتوراه في الفلسفة من جامعة كمبردج

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية  
 بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

اعتمدت جامعه كمبردج مدينه الدراسه لدرجه الدكتوراه في الفلسفة  
وقدرت جامعه القاهرة طبعها على نفقتها

للطبعة السادسة (١٩٧٨) مع بعض التفقيحات والزيادات



ملذمة الطبع والنشر  
مكتبة الخصبة المصممة  
لأصحابها حسن محمد وأولاده  
٩ شارع عدل باتا بالقاهرة

أولادك . . . فقال الوزير لرسل السلطان : قولوا له : إن كنت ملعلمت أنى شريكت في الملك فاعلم ، فإنك مانلت هذا الأمر إلا بتدبيري ورأيي ، أما يذكر حين قتل أبوه فقمت بتدبير أمره وقعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم ، وقدت الأمور إليه . وجمعت الكلمة عليه ، وفتحت له الأوصار القريبة والبعيدة ، حتى أطاعه القاصي والداني ، والآن أقبل يتبعني لى الذنوب ويسمع في السعایات ، قولوا له عنى : إن ثبات تلك القلنسوة (التاج) مرتبط بهذه الدواة ، ومتى أطّقت هذه زالت تلك <sup>(١)</sup> .

وأشعل هذا الرد الصريح ثورَةَ الغضب والخذل في نفس ملـكـشاه فيقال أنه دبر قتله ، وقيل إن الذى اغتله صبي ديلى من الباطنية تقدم إليه في صورة مستقيم أو مستغيث ، فضر به بسـكـينـ كانت معه فقضى عليه <sup>(٢)</sup> .

وانطفأت هذه الشعلة المتوجهة التي بعثت النور في عصر الظلام ، ولكن سيرته وسيرة أعماله بقيت عاطرة بعده أجيالاً وقرون ، وهذا نحن أولاء نجدد ذكره بـكـثـيرـ من الإجلال والتقدير .

## الأوقاف على التعليم

قبل بـيـتـ الحـكـمةـ كان التعليم يـجـرـىـ فيـ أـمـكـنـةـ غـيرـ مـخـصـصـةـ لـهـ ،ـ كـانـ يـلـتـقـىـ العـلـمـاءـ بـالـطـلـابـ فـيـ الـمـسـاجـدـ ،ـ كـانـ الرـاغـبـونـ فـيـ الـعـلـمـ يـسـعـونـ إـلـىـ دـورـ الشـيـوخـ للـسـيـاعـ مـنـهـمـ فـيـهـاـ وـهـكـذاـ ،ـ وـمـنـ أـجـلـ هـذـاـ لـمـ تـكـنـ هـنـاكـ نـفـقـاتـ مـعـيـنةـ تـبـذـلـ فـيـ سـبـيلـ نـشـرـ الـعـلـمـ .ـ فـلـمـ ظـهـرـتـ الـحـاجـةـ إـلـىـ تـأـسـيـسـ مـكـانـ يـخـصـصـ لـرـعـاـيـةـ الـعـلـمـ وـنـشـرـ الـثـقـافـةـ ،ـ ظـهـرـتـ فـيـ الـوقـتـ فـكـرـةـ أـنـ يـوـقـفـ عـلـىـ هـذـاـ الـمـعـهـدـ وـقـفـ يـنـتـجـ إـبـرـادـ

(١) ابن الجوزى : المنتظم ٩ : ٦٧ وابن الأثير ١٣٨ : ١٠

(٢) انظر ابن الأثير في المـسـكـانـ السـابـقـ

يكفي للإتفاق على شيوخه وشيوخ القائمين بالعمل فيه ، وكان المأمون أول من أبرز هذه الفكرة للوجود ، فإنه لم يشاً أن يكون نشاط بيت الحكمة متوقفاً على سخاء الخلفاء والأمراء ، بل أراد أن يجعل نشاطه قوياً متصلة سواءً كان الخليفة كريماً أم شحيحاً ، فهياً للعلماء رزقاً سخياً يتتقاضونه من وقف ثابت يفيض ريعه عن التكاليف المطلوبة لهذه المؤسسة الثقافية<sup>(١)</sup> . وانتشرت فكرة المأمون هذه بين من خلفه من الخلفاء والعلماء ، فأصبح من ضروريات إنشاء معهد ثقافي أو مدرسة أن يعين لها وقف ثابت ، تلتقي منه ما يفي ببنفقاتها ، وما يدها بما تحتاجه من مصروفات ، ثم تطور هذا الاتجاه ، فظهرت الأوقاف أيضاً على الذين يشغلون أنفسهم بخدمة العلم في المساجد ، بل إن بعض الأركان أو الأعمدة بالمساجد كان يوقف عليها أوقاف سخية يصرف ريعها إلى من يجلس بها للتدريس والتعليم وفيما يلي عرض سريع لما ذكر من هذه الأوقاف :

نظام الملك : سبق الحديث عن النهاية الألبية التي نزلت بالمدارس النظامية ، وكيف أن نظامية بغداد مثلاً اختفت في ظروف غامضة ، وإن مكانها اغتصب منذ عهد سحيم ، فلم يعد معروفاً بوجه الدقة للباحثين والمدارسين . . . ويبدو - للأسف - إن هذه النهاية الألبية حافت لا بالبناء فقط وإنما بكثير مما كتب عنه أيضاً ، فقد كان مما ضاع على الباحثين هذه الوثيقة التي كتبت فيها وقفيه نظام الملك على مدارسه . لقد ورد ذكر هذه الوثيقة في عدة مراجع ولكن الباحثين قد يمّاً وحديتاً لم يستطعوا أن يحصلوا على ذاتها أو نصها .

وعلى كل حال فعن دنا من المصادر ما يمّد الباحث في هذا

الموضوع بمعلومات إن لم تكن كاملة فهى قريبة من الكمال :

قال سبط بن الجوزى<sup>(١)</sup> : وفيها (أى في سنة ٤٦٢ هـ) أوقف نظام الملك الأوقاف على النظامية . وحضر الوزير والقضاة والدول بيت النوبة ، وكتبوا الكتب وأثبتت ، وعما وقف سوق المدرسة وضياع وأماكن وشرط [ نظام الملك ] الشروط المعروفة .

ويقول أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى<sup>(٢)</sup> في حوادث نفس السنة : وفي يوم الإثنين السادس والعشرين من جمادى الآخرة جمع العميد أبو نصر الوجه ، فأحضر أبا القاسم ابن الوزير خفر الدولة والنقيبين والأشراف وقاضى القضاة والشهدود إلى المدرسة النظامية وقرئت كتب وقفيتها ، ووقف الكتب فيها فكان في الوقف ضياع وأملاك وسوق ابنته على بابها .

وقد رأى ابن جبير ببغداد نحواً من ثلاثين مدرسة وهو يقول إنه ما فيها مدرسة إلا وهى يقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية التي بناها نظام الملك ، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات واسعة للإنفاق على الفقهاء والمدرسين بها والإجراة على الطلبة<sup>(٣)</sup> .

أما ما خصص من المال لرعاية الشئون الثقافية على العموم ، وكذلك ريع الأوقاف المعينة للمدارس فإن المراجع التي بين أيدينا أوردت تفصيلات نافعة عنها ، فقد ورد أن ما كان ينفقه نظام الملك في السنة على التعليم قد بلغ

(١) مرآة الزمان ١٢١ - ٢ مخطوط بباريس .

(٢) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ٢٥٦ .

(٣) رحلة ابن جبير ٢٢٩ .

٦٠٠٠ دينار (١) .

أما الريع الذي كانت تتوجه الأوقاف الخصصة لنظامية بغداد فقد ورد أنه كان ١٥٠٠٠ دينار في العام (٢) وقد كان ذلك الريع كافياً لمرتبات الشيوخ وإنما يدفع للطلبة ، وكان يشمل مثونة طعامهم وملابسهم وفرشهم وغير ذلك من ضرورات معاشهم حتى نبغ فيها جم من الفقهاء الأفضل من لا يحصلون كثرة (٣) أما أوقاف نظام الملك على نظامية أصفهان فقد كانت تغل ١٠٠٠ دينار سنوياً (٤) .

نور الدين : فيما يختص بنور الدين سبق أن أوردنا وثيقة هامة تبين بوضوح الأوقاف التي عينها للمدرسة النورية الكبرى ، وقد ظهر منها أن ريعها الوفير كان يكفي الإنفاق على الطلاب والمدرسين إنفاقاً متواصلاً سخياً . ومن الممكن هنا أن نعطي مثلاً آخر لنؤكّد هذه الحقيقة ، فقد ذكر أبو شامة (٥) أن نور الدين وقف على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وعلى أمتها ومدرسيها وفقهاها أوقافاً كافية ، ومن مناقبه أنه عين المغاربة الذين كانوا يلتحقون بزاوية المالكية بالمسجد الجامع أوقافاً كثيرة منها طاحونتان ، وسبعين بساتين ، وأرض بيضاء ، وحمام ، ودكانان بالعطارين ، وجعل أحد هؤلاء المغاربة مشرفاً على هذه الأوقاف (٦) .

(١) ناجي معرف : المدرسة المستنصرية ص ٨

(٢) محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص ٩٨

(٣) تاريخ مساجد بغداد للألوسي ص ١٠٣

(٤) سعيد نقيس : مدرسة نظامية بغداد ص ٢

(٥) الروضتين ١ : ١٦ (٦) ابن جبير : الرحلة ص ٢٨٥

## الآُوقاف على التعليم في مصر\* :

ووجدت الأوقاف على التعليم في مصر قبل عهد نظام الملك ونور الدين بوقت طويل ، فمنذ سنة ٣٧٨ هـ في خلال عهد العزيز بالله أصبح الأزهر معهداً علمياً أكثراً منه مسجداً<sup>(١)</sup> ، ولذلك نجد أن الوزير يعقوب بن كاس يسأل الخليفة العزيز بالله في صلة رزق جماعة من الفقهاء فأطلق لهم ما يكفي كل واحد منهم من الرزق الناض وأمر لهم بشراء دار وبنائهما فبنيت بجانب الجامع الأزهر . فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع وتحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلي العصر ، وكان لهم أيضاً من مال الوزير صلة<sup>(٢)</sup> . فلما جاء الحاكم عمد إلى الأوقاف <sup>يُعيّنها</sup> للإنفاق من ريعها على المساجد والمؤسسات الثقافية ؛ فلقد أوقف على الجامع الأزهر ، والجامع براسدة ، ودار العلم ، أوقافاً عظيمة ذكرها في سجل أشهد عليه قاضي القضاة مالك بن سعيد الفاروقى . وكانت الأوقاف عبارة عن جميع الدار المعروفة بدار القرب ، وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف ، وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة ، ويؤكد الحاكم أن هذه الوقفية دائمة للأبد لا يوهنها تقادم السنين<sup>(٣)</sup> .

فلما جاء الأيوبيون إلى مصر نقلوا معهم حماسة نظام الملك ونور الدين ، وحماتهم للعلم ، ثم وجدوا أنفسهم في مصر ، أمام تراث الفاطميين العريق ، ومدنיהם العريضة ، التي كان الفن والعلم من أنضر فروعها ، حافظ الأيوبيون على هذا التراث المزدوج ، ورعوا العلم ، وما بخلوا في الإنفاق

\* الحديث عن مصر سيشمل أيضاً الحديث عن سوريا ؛ لذا امتد نفوذ الفاطميين والأيوبيين والمالكية إلى بلاد الشام في فترات طويلة من حكم هذه الأسر ، وعلى هذا فستذكر أمثلة عن الأوقاف في سوريا خلال هذا الحديث .

(١) Stanley Lane-Poole : Cairo 123. 121.

(٢) المقرizi : الخطاط ٢ : ٢٧٣ . (٣) المصدر السابق : ٢ : ٤٧٣ — ٤٧٤ .

عليه، أنشأوا كثيراً من المدارس ، وأوقفوا عليها الأوقاف السخية ، وظهرت موجة من التنافس في هذا السبيل أخذ فيها الأمراء والوزراء والعلماء وال العامة بنصيب ملحوظ ، وفيما يلى أمثلة موجزة هذه الأوقاف :

يقول ابن جبير<sup>(١)</sup> إن كل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه<sup>(٢)</sup> يعين لها السلطان صلاح الدين أوقافاً تقوم بها وبساً كنيتها والمتزمن بها ، ويضيف المقرizi أن صلاح الدين عندما بني المدرسة الناصرية بالقرافة وقف عليها حماماً بجوارها ، وفرناً تجاهها ، وحواينت بظاهرها ، والجزيرة التي يقال لها جزيرة الفيل ببحر النيل خارج القاهرة<sup>(٣)</sup> .

واقتدى بصلاح الدين غيره من أنشأوا المدارس ورعوا العلم في العهد الأيوبي ، ومن هؤلاء تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب الذي اشتري منازل العز التي كانت تشرف على النيل ومعدة لنزهه الخلفاء الفاطميين ، ثم جعلها مدرسة للفقه الشافعى . ووقف عليها الحمام وما حولها ، وبني فندقاً عرف بفندق التخلة ووقفه عليها ، ووقف عليها جزيرة الروضة التي كان قد اشتراها من قبل<sup>(٤)</sup> .

ومن المدارس التي حظيت بوقف سخي المدرسة الدماجية بدمشق وكانت داراً لشجاع الدين بن الدماج فلما مات جعلتها زوجته مدرسة للشافعية والحنفية ووقفت عليها ثمانية أسمهم من أربعة وعشرين سهلاً من المزرعة الدماجية ، والخمسة من رجم الحيات ، والخمسة من حمام إسرائيل خارج دمشق ، والخمسة بدير سلمان من المرج ، ومزرعة شرخوب عند قصر أم حكيم ، ومحاجرات ، وغير ذلك<sup>(٥)</sup> .

ويذكر المقرizi<sup>(٦)</sup> ثمانية من زوايا جامع عمرو التي كانت تقام بها حلقات

(١) الرحلة من ٢٧٠ . (٢) خانقاه أو خانكاه كلية فارسية الأصل جمعها في العربية خوانق ومعناها دار موقوفة لسكنى الزهاد والصوفية والمباد (٣) انظر كذلك الخطاط ٤٠٠ .

(٤) الخطاط ٣٦٤ : ٣٦٤ . (٥) النعيمي : الدارس ١ : ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٦) الخطاط ٢ : ٢٥٥ - ٢٥٦ .

تعليمية ويشير إلى الأوقاف التي وقفت على كل من هذه الزوايا وفيما يلي إلإسمة موجزة ببعضها :

- زاوية الإمام الشافعى التي درس بها فعرفت به ، ووقفت عليها أرض بناحية سنديس ، وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين .
- الزاوية السكالية بالمقصورة المجاورة لباب الجامع الذى يدخل إليه من سوق الغزل ، رتبها كمال الدين السمنودى وعليها فندق بمصر موقوف عليها .
- الزاوية التاجية أمام المحراب الخشب ، رتبها تاج الدين السطحي وجعل عليها دوراً بمصر موقوفة عليها .

وهي كانت الأوقاف في الغالب هي المورد الذى ينفق منه على التعليم في العالم الإسلامي ، ولكن في بعض الحالات كانت نفقات التعليم تدفع من الخزانة العامة للدولة ، ذكر المؤرخون أن الوزير ابن كلس كان يجري بأمر العزيز بالله ألف دينار في كل شهر على جماعة من أهل العلم والوراقين والمجلدين <sup>(١)</sup> . ومن الأمثلة التي تدعو للعجب والدهشة ما رواه ابن بطوطة <sup>(٢)</sup> من أن أحد ملوك إيدج كان يقسم خراج بلاده أثلاثاً ويجعل الثلث لنفقة الزوايا والمدارس . وفي ختام هذا البحث نورد وقفيه هامة هي تلك التي وقفتها ست الشام أخت السلطان صلاح الدين على المدرسة الشامية الجوانية ، وقد هُرّبت هذه المدرسة واتخذت داراً ، ولكن بقي منها بابها القديم وقد كتب على عتبته العليا نص الوقفية ، وعلى الصفحة التالية صورة هذه العتبة (شكل رقم ١٥) وتنتمي هذه الوقفية - فوق أن مرجعها هو النص المكتوب على العتبة وهو مرجع موثوق به تماماً - بأنها وقفيه مفصلة دقيقة ، ثم بأن طريق إتفاق ربع الأوقاف ورد لنا مفصلاً في مرجع هام هو تاريخ مدارس دمشق للنعيمى ،

(١) آدم متنز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١: ٢٩٤ من الترجمة العربية .

(٢) تحفة النظار لابن بطوطة ٢: ٠٣١

وفيما يلي نصوص الوقافية :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذه مدرسة الخاتون الكبيرة الأجلة عصمة الدين  
ست الشام أم حسام الدين بنت أبوبكر بن شادى رحمها الله ، وفقتها على الفقهاء  
والملتفقة من أصحاب الإمام (الشافعى) رضى الله عنه ، والموقوف عليها وعليهم  
وعلى ما يتبع ذلك ، جميع القرية المعروفة بيزينة ، وجميع الحصة وهى أحد عشر سهماً  
ونصف من أربعة وعشرين سهماً من جميع المزرعة المعروفة بجرمانا ، وجميع الحصة  
وهي أربعة عشر سهماً وسبعين من أربعة وعشرين سهماً من القرية المعروفة بالتينية ،  
ونصف القرية المعروفة بمجيدل السويدا ، وجميع القرية المعروفة بمجيدل القرية ،  
وذلك في سنة ثمان وعشرين وسبعين .

أما الإنفاق على هذه المدرسة فقد وضع على النسق الآتى :

أولاً - يبدأ في الإنفاق بعمارة المدرسة ، وثمن زيت ، ومصابيح ، وحصر ،  
وبسط ، وقناديل ، وشماع ، وما تدعى الحاجة إليه .

ثانياً - يدفع للمدرس غرارة من الحنطة ، وغرارة من الشعير ، ومائة  
وثلاثون درهماً فضة ناصرية .

ثالثاً - عشر الباقي يصرف إلى الناظر عن تعبه وخدمته ومشارفته للأملاك  
الموقوفة وتردده عليها .

رابعاً - إخراج ثلاثة درهم فضة ناصرية في كل سنة ، تصرف في ثمن بطيخ  
ومشمش وحلوى في ليلة النصف من شعبان على ما يراه الناظر .

خامساً - الباقي يصرف إلى الفقهاء والملتفقة والمؤذن والقيّم المعهود  
لكتنس المدرسة ورشها وفرشها وتنظيفها وإيقاد مصابيحها ،  
ويعطى هؤلاء على قدر استحقاقهم على ما يراه الناظر في أمر هذا

الوقف من تسوية وتفضيل وزيادة ونقصان وعطاء وحرمان .

وقد ذكرت الواقفة أن من شرط الفقهاء والمتفقهة والمدرس والمؤذن والقيم أن يكونوا من أهل الخير والدين والصلاح والعفاف وحسن الطريقة وسلامة الاعتقاد والسنة والجماعة كشرط - رغبة منها في أن يظل الملتحقون بالمدرسة في مستوى مالي لائق - ألا يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة المستغلين بهذه المدرسة عن عشرين رجلا ، من جملتهم المعيد بها والإمام ، وذلك بخلاف المدرس والمؤذن والقيم إلا أن يوجد في ارتفاع الوقف نماء وزيادة وسعة فلذلك يقتضي أن يقيم بقدر ما زاد ونما<sup>(١)</sup> .

### حلقة التعليم

ظهرت حلقة التعليم في العالم الإسلامي مبكرة ، أو قبل إنها ظهرت مع ظهور الإسلام ، وتعددت الحلقات واستمرت ، ولا تزال حتى العهد الحاضر تحمل طابع الماضي الحميد ، وحسبك أن تزور الأزهر ، أو تزور أحد المساجد الشهيرة في العالم الإسلامي كله ، لتري الشيخ مقبلاً على طلابه بمحاسة ظاهرة ، وترى الطلاب تركيز عيونهم في الشيخ ، لا يرون سواه ، ولا يستمعون إلا إليه ، كما شددت عيونهم بوجه الشيخ ، وآذانهم بما ينطق به لسانه .

ويجلس الشيخ على حشيشة صغيرة (شلقة) أو على منصة ، ويغلب أن يكون ظهره إلى حائط أو سارية من سورى المسجد ، ويكون الحضور حلقة أمامة ، يكون هو في أبرز نقطة في محيطها ، ولا يجلس المستمعون